عشرون يوما في العراق[1]

من القاهرة الى بغداد بطريق الجو

بكرت يوم الجمعة في ٢٤ ابريل سنة ١٩٣١ الى مطار هليوبوليس ، واستعرضت ما هنالك من طيارات كأنني انتقي احداها . هذه صغيرة يتلاعب بها الريح لا امتطيها، وهذه كبيرة اظنها تهيأ لسفر ابعد مدى من بغداد ، وهاتيك متوسطة الحجم لعلها هي. ولماذا لا أسأل ؟

سألت عن طيارتي موظفاً بريطانيًا ، وكأنه فهم من اشاراتي واهتمامي ان هذه اول رحلة لي في طيارة فابتسم — ولو لم يكن بريطانيًا لقهقه — وقال : طيارتك لا تزال في الجو فانتظرها . وتكاثرت الطيارات « على خراش » في ذلك اليوم ، فكنت اعدو من اول المطار الى آخره لاسأل عن الطيارة القادمة هل هي « لي » ، فلا اكاد اجاب بلا حتى اعود الى الوراء مسيرة كيلومتر لأسأل عن قادمة ثانية ، وهكذا قضيت الوقت قبل الظهر وقليلاً مما بعده ذاهباً آيباً اتحرى وأسأل في ميدان المطار الفسيح

---

(١) عنوان كتاب تحت الطبع للاستاذ الذي دائر وصف فيه زيارته لعاصمة العباسيين وما رآه فيها من مظاهر النهضة وما احيته هذه الزيارة في نفسه من الآمال الطيبة بمستقبل العراق ومستقبل العرب . وقد قال في سياق كلامه عن الاسباب التي حملته على وضع هذا الكتاب ما يأتي :

« ما كان يحسن بي وقد قضيت اياماً طيبة في العراق ان استأثر بمشاهداتي في تلك الربوع وانفرد بما رأيت من طريف وما وعيت من حديث او اترك ما ارتسم في المخيلة منها عرضة للمحو ، وما حفظته الذاكرة غرضاً للنسيان

« في العراق نهضة حياة : في شبابه وعمرانه وسياسته واجتماعه وحضارته . وفي العراق يقظة روح في معارضته وذوده عن حقوقه وتلمسه مطالع النور في مستقبله . وفي شعب العراق جنة اشتاق في ادب وتفكير وتخطيط وخطى ؟ » الى ان قال :

« اكبر ذلك كله في نفسي فقلت ما الى اهمال التفصيل بعد الاجمال سبيل ، ولا من وضع كتاب يتنقل به القارئ بين الايجاز والاسهاب بد

« فكتاب رحلتي العراقية هذه صورة اودعتها خواطر حس ومرئيات عين والهامات يقين وآمال متفائل وتقد محب ونصح شفيق . هو صفحة من صفحات القلب انشرها عما طويت ، واعرضها على الانظار عما انتقش فيها من هواجس ومدركات مجيباً في ذلك دعوة الاخلاص ومثبتاً باعث الحرص على تدوين الجديد ليعيش الى جانب القديم . والامم في سيرتها كالناس ماض وحاضر . والانشاء نقل قديم ومستحدث . وفي الماضي تراث للحاضر ومن القديم شعاع تنير به سبل الحديث »

نظرت في الساعة فاذا هي الثالثة بعد الظهر، واسمي طيارة اسمها «مدينة كراشي» ذات ثلاثة محركات وثمانية مقاعد، عدا مقعدي السائق ومساعده في المقدمة ؛ وقد حام حولها ثلاثة من الانكليز حزرت انهم رفاق لي في هذه الرحلة وصدق حزري

وقيل لنا اصعدوا فقفزت قفزة خير — وكنت قد مرنت ساقي على صعود سلم الطيارة في هذا النهار الطويل — واسرعت الى مؤخرها فاخترت الكرسي الذي يقابل الباب لان صديقاً لي من الذين الفوا الاسفار الجوية قد اشار عليَّ باختياره ، لكي لا يحجب عني جناحا الطيارة شيئاً من المناظر . وابتدأ هدير المحركات في الساعة الثالثة والدقيقة السابعة بعد الظهر

* * *

كنت حريصاً على ان ادخر في نفسي واسجل في « مفكرتي » كل حركة اشعر بها من ابتداء الركوب الى اهتزاز الطيارة الاول الى ارتفاعها فتحليقها في الجو ثم هبوطها. وذلك لان بعض اخواني ممن لم يوفقوا حتى تلك الساعة — مثلي! — الى امتطاء طيارة ارادوا ان اصف لهم دقائق الطيران وجلائله . . . . فليكن لهم ما ارادوا . وهاهي الورقة في يساري والقلم في يميني وعيناي في النافذة . وسوف ارى كل شيء وادونه

ايطول الانتظار والطيارة ترحف على الارض ؟ انني في سيارة اذن لا في طيارة . وصحراء هذا المطار ، ألا تنتهي ؟ لقد اجترتها على قدمي مراراً اليوم

ولكن ماهذه البيوت الصغيرة التي يصنعها الاطفال للتلهي ؟ انني لم ارها في المطار فوجئت بالخيبة الاولى في رحلتي هذه حين تبينت ان تلك البيوت الصغيرة انما هي مدينة هليوبولس ، وقد فاتني ادراك حركة ارتفاع الطيارة مع شدة تحديقي في الارض ومحافظتي على الورقة والقلم — فليعذرني من طلب مني وصف ذلك

ويخيل اليَّ الآن ان الطيارة انتقلت من الارض الى الجو كما تنتقل السيارة الفخمة من شارع تكثر فيه الحفر الى شارع رصف بالاسفلت . وكانت حركتها في الجو كحركة المصعد « الاسنسور » او كحركة الزورق في بحيرة صغيرة هادئة

لم اتمكن من اطالة النظر في هليوبولس لان الطيارة كانت قد ارتفعت في الفضاء وانطلقت انطلاق السهم

غابت مشاهد العمران عن عيني ، وبالغت في تقدير ما بلغناه من ارتفاع عظيم في طبقات الجو لاني — ولا اكتم — قد تهيبت الموقف فحوّلتُ نظري الى اجنحة الطيارة متشاغلاً برؤيتها وهي تهتز على نغمات المحركات. ثم ادركتني نفحة من «الشجاعة»

فقلت ماذا يحدث لو عدت الى النافذة تاجلت الغرف فيما بيني وبين البسيطة من أمتار كنت اقدرها بالالوف . يجب ان اعرف في اي تيار لسبح من عالم الفضاء

فتحت النافذة واطللت فلم ارَ ماين الطيارة والارض اكثرمن ذراعين او مترين !!

وكانت الصحراء بساطاً ممدوداً خيل الي اني لو القيت بنفسي عليه لما سقطت على غير ما يشبه الحرير نعومة . في ذلك البساط الحريري نقوش وطيات بديعة . تلك النقوش اعشاب الصحراء ، وتلك الطيات كثبانها . لقد خانني بصري وجهلت ان المرتفع في الجو لا يستطيع ان يعرف مسافة بعده عن الارض اذا كان فوق سهل او بحر بل يتوهم انه يسير على ارتفاع امتار لعدم وجود جرم يعرف علوه ويتخذه اساساً للقياس كالبيت أو الباخرة أو ما اشبه

والحقيقة انني لم أشعر بأننا نسير على ارتفاع عظيم إلا بعد أن حلقت «مدينة كراتشي» فوق مدينة «الاسماعيلية» ولم أعد أحسب المنازل من «بيوت الاطفال» كما ظننتها في سماء هليوبوليس . وقد كان منظر الاسماعيلية من الجو أعجب منظر رأيته في حياتي . دور كأنما هي خطوط مرَّ بها رسَّامٌ على قرطاس . اتسقت سطوحها ، وتساوت زواياها ، وتناسقت شوارعها وميادينها ، وأحاطت بها أشكال هندسية ملونة ، لولا العلم بأن هناك حدائق وأعشاباً وأزهاراً ومزروعات لما خامرني شك في أنني أنظر الى صورة لونت بالزيت، فن مثلث أحمر إلى مربع أخضر إلى أشكال أخرى مختلفة الألوان ، لا ينتهي حسن منها حتى يلوح حسن !

***

يعلو الانسان في حياته النفسية ، فيرى جمال الحياة . وكلما ازداد امعاناً في الصعود وترفعاً عن ادران العالم المنحط ومعايبه زاد احتجاب تلك الادران والمعائب عن عينيه حتى إذا تناهى في الارتفاع نسي ما خلف في الحضيض النائي عنه . كذلك حياة المادة والاشكال والصور ، يختفي المشوه منها بقدر البعد عنها

***

أما قناة السويس ، فكانت أشبه بجدول صغير ، دقيق ، أزرق . وها نحن فوق البحر ، بين فضاء السماء وعباب الماء . وها هي صحراء سيناء . بل أين نحن ؟ انني أنظر من النافذة اليمنى فأراني فوق الرمال ، وانتقل إلى النافذة اليسرى فلا أرى غير زرقة البحر . أترى الطيارة قد ساوت بين المتجاورين ، فأبحر شطر منها وأصحر شطر ! دام هذا المنظر نحو عشر دقائق كان يخيل الي في خلالها أن الطيارة لو سقطت لوقع

نصفها في الصحراء ونصفها في الماء . ثم غاب مشهد البحر وبدت واحة صغيرة أخذت تكبر كلما اقتربت الطيارة منها . وقد انحدرت اليها فبلغتها في الساعة الرابعة والدقيقة الخمسين بعد الظهر وهي ساعة وصولنا إلى مطار غزة

حفّ بي خدم المطار في غزة ، وكلهم من العرب . وكأنهم أنسوا بي لقلة من يرون من الطائرين الشرقيين . وأقبل عليّ أحدهم يثني على قائد طيارتنا ويصفه بالاقدام ، قائلاً انه « كتير جرا عتل ! » أي « جريء جداً » . والحقيقة أن القائد كان جديراً بهذا الوصف ، وحريًّا بأن تضاف اليه صفة الخبرة والمهارة أيضاً ، لأن الجرأة وحدها ليست مزية بل تكون ضرباً من التعرض للهلاك إذا لم يصحبها العلم والاختبار ثم التمرن

وفي غزة فندق — أو شبه فندق — لا بأس به . وهو تابع لشركة الطيران . تناولنا فيه طعام العشاء وبتنا تلك الليلة .

***

ونهضنا فجر اليوم التالي (٢٥ ابريل) فتبوأنا مقاعدنا من الطيارة قبيل الساعة الرابعة ، وانبعث نور من المطار ممتداً على اتجاه سير الطيارة مسافة بعيدة ؛ فبرحنا غزة والساعة تدق اربعاً والناس نيام

اجتزنا البحر الميت ، من جنوبه الغربي الى شماله الشرقي ، في خمس دقائق ، وكنا بلغناه بعد أربعين دقيقة من توديعنا مطار غزة . وبدت لنا في الساعة الخامسة أشباح عمران تجاورها بركة ماء كبيرة ، أظنها « الأزرق » أول ملجأ أوى اليه أباة سورية وجاهدوها في ثورتهم على بغي الغرب

ومضت ثلاث دقائق بعد الساعة الخامسة ، فرأيت أشعة الشمس تلقي على أجنحة الطيارة تحية الصباح ، ونظرت إلى الارض فاذا الظلام لا يزال باسطاً رواقه فوقها ، فأدركت ما بيننا وما بينها من بعد شاسع . وخيل إليّ في الدقيقة العشرين بعد الخامسة صباحاً أننا قد تجاوزنا عمران شرق الاردن . إذ لم نعد نرى غير رمال الصحراء . ولا أود أن تفوتني الاشارة هنا إلى ما أحس به نظري من الفرق بين الصحاري الثلاث : صحراء مصر ، وصحراء سيناء ، وصحراء سورية والعراق ؛ فلقد كانت الأولى باسمة ، فيها كل البهجة ، وكان في الثانية شيء من العبوس ، اما الثالثة فقاتمة مربدّة مخيفة ، ولعل سبب ذلك كثرة ما تسمونه « الصرار » وهو حجارة من الصوان يضرب لونها إلى السواد تغطي جانباً كبيراً من تلك السهول

ترى أين نحن ؟ ! في الساعة ٥ والدقيقة ٣٢ كنا نمر بمستنقع أو شبه بحيرة ، تحيط

بها أرض بيضاء كالملح . وإلى الشمال جبال . واستمرت المناظر متشابهة متشاكلة الى الساعة ٧ والدقيقة ٢٢ فتراءت عن بعد بحيرة ، ولعلها نهر ، بل لعلها سراب ! وفي الدقيقة ٤٥ بعد السابعة أراني الطيار قائدنا ، ثم ماشية ، ثم بحيرات ماء كدرة واحال سبب كدورتها أن السماء كانت قد أمطرت قبل وقت يسير . وفي الثامنة مررنا بكثبان من الرمال ، قامت على أشكال هندسية ، جذابة المنظر ، بعضها هرمي والآخر بين مثلث ومربع . وقد وصلنا الى الرطبة على الحدود بين العراق وسورية في الساعة الثانية والدقيقة الثانية والعشرين صباحاً

لا أستطيع أن أصف شعوري حينما وصلنا الرطبة . فقد خيل اليّ اني وصلت الى بلدي بل إلى بيتي ، مع اني غريب عن العراق ليس لي فيها أهل ولا سكن ولم تطأ قدماي أرضها من قبل ولا عرفت عنها غير ما قرأته وسمعته

فلماذا هذا الشعور إذن ؟ لقد حاولت أن اكتشف سببه فجعلت أفكر فيه وأنا أسير ذهاباً وإياباً في المطار ، وقد خيل اليّ اني اكتشفته : فقلت في نفسي من الطبيعي أن أشعر اني في بلدي حينما أكون في بلد لاخواني وأصدقائي الشأن الأكبر فيه ، فهم في الحكومة وهم في المعارضة وهم في الجيش والصحافة والأدب والصناعة والزراعة وفي جميع ميادين العمل والنشاط . ولكني ما لبثت أن عرفت خطأي ورجعت عنه . فقد تصورت أنهم متغيبون عن بغداد واني لن اقابل فيها أحداً منهم ثم بحثت في أعماق قلبي عما يكون شعوري في هذه الحالة ، فوجدت أنه لم يتغير وان شعوري شعور رجل عائد إلى أهله وبيته مدفوعاً بعامل الشوق الشديد بعد غياب طويل

ما أجمل حب الوطن وما أشد تأثيره في النفوس . انه يفعل فيها فعل الغرام في نفس العاشق الولهان ، بل قد يكون أشهى وألذ . وكما ان المعشوقة ليست في ملابسها وحليها ومظاهرها بل في روحها وعواطفها وفضائل نفسها وجمال خلقها وخلقها ، كذلك الوطن ليس هو الجبل ولا النهر ولا البلد ولا القفر بل هو كيان معنوي مؤلف من جماعات متجانسة تجمع بينها وحدة الجنس والدم واللغة والآمال والأماني والعادات والتقاليد والأخلاق والمصالح والتاريخ . فاذا ما وجد الانسان بلداً تربطه بسكانه كل هذه الروابط فهذا البلد هو وطنه سواء ولد في هذه البقعة منه أو في تلك وسواء كان مسكنه هنا او هنالك أو لم يكن له فيه دار ولا سكن

نزلنا ، واشتركنا في توديع الطيارة « ستي أوف دهلي » وقد وصلت من بغداد في طريقها الى مصر ، وتناولنا طعام الصباح . وقيل لي إن في تلك المحطة نافورة

لاسلكي، فأسرعت اليه وحيّيت بعض أصدقائي في بغداد . وفي مطار الرطبة مخفر عراقي ، كان طليعة ما رأيت من جيش العراق المنظّم

وفي ذلك المطار سألني إنسان : متى خرجتم من غزة ؟ فقلت : منذ أربع ساعات ونصف ، فحرّك رأسه وقال : لقد اجتزت انا هذه المسافة على الجمل في شهرين!

* * *

وودعنا الرطبة في الساعة ٨ والدقيقة ٥٥ فطرنا فوق أرض لا زرع فيها ولا أعشاب . وبدت لنا بحيرة الحبانية في الساعة الحادية عشرة . واستدللنا برؤية بقعة خضراء على انا دخلنا منطقة العمران في الساعة ١١ والدقيقة ١١ ولاحت مآذن بغداد في الساعة ١١ والدقيقة ٣٥ . وكان جماعة من « طار » بي اليهم الشوق ينتظروني في محطة الطيران ببغداد ، أقبلت عليهم وأقبلوا عليّ للسلام ، في الساعة الحادية عشرة والدقيقة ٤٠ من صباح يوم السبت ٢٥ ابريل ١٩٣١

ولا يزال في نفسي أن أذكر ثلاثة أمور عن الطيارة ، وأعد القارىء بألاّ أطيل !

١ — كان الحديث في الطيارة لا يُسمع ، لشدة دويّ المحركات ، فاستعان ركابها بأقلامهم ، فنابت « الرسائل » مناب التخاطب

٢ — بلغ من مهارة الطيار — ويؤسفني أنني لم أدوّن اسمه في مذكرتي — أنه لم يدعنا نشعر بشيء من اهتزاز الطيارة ، بحيث لم نكن نفرق بين اسراعها وبطئها ، فلو أردت أن أتخيلها « ثابتة » في الفضاء ، غير متحركة ، حتى في الصعود والانحدار ، لصحّ الخيال . ولعل لحالة الجو في ذلك اليوم البديع شأناً في ذلك

٣ — الذ الدقائق التي قضيتها في الطيارة كانت في سماء شرقي الاردن حيث بقينا مدة نسبح فوق الغيوم المتكاثفة التي حجبت الارض عن انظارنا . ولو كان ذلك اليوم من الايام الممطرة لربما تمتع « سكان الطيارة » بشمس الصيف بينما « سكان الارض » لاجئون الى منازلهم فراراً من العواصف والامطار

ولما ابتعدنا عن منطقة الغيوم ودخلنا الصحراء اطللت من النافذة فابصرت ثلاثة طيور كبيرة اظنها نسوراً او عقباناً تسير تحت الطيارة وعلى مسافة عشرين متراً منها وتحاول ان تجاريها في سرعتها ولكن أنى لها ذلك . فلم يمض على هذا «السباق» دقيقتان حتى اصبحت الطيور وراءنا لا ترى الا بالمنظار

غلب النسر على دولته وتنحّى لك عن عرش السماء

اسعد داغر